مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 10 عدد: 3 السنة: 2021
ص: 1162 - 1176 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

اللسانيات وأثرُها على المُقاربات النّصية

Linguistics and its effect on the textual approaches

حسني مصطفى، كبريت علي[2] *
Hosni Mustafa[1], kebrit Ali[2]
جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر).
مخبر الخِطاب الحِجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
University of Ibn khaldoun Tiaret (ALGERIA)
mustafa.hosni@univ-tiaret.dz[1] 1 kebrit14@yahoo.fr[2]

تاريخ الإرسال: 2020/11/08	تاريخ القبول:2021/04/23	تاريخ النشر: 2021/09/02

مُلخّص البحث

يسلّط هذا المقال الضّوء على التّحوُّل المنهجي الذي عرفه النّقد الأدبي في مقارباته للنّصوص، بعد ظهور اللسانيات وما تمخض عنها من مناهج نقدية، وكيف صار هذا النّموذج الغربي القالب العالمي المعمول به؛ فالمدونة النّقدية العربية تشهد انفتاحاً كبيراً على تطبيقِ المناهجِ النّقدية الغربية على النّاتج الإبداعي العربي المختلف كثيرا في مرجعياته عن نظيره الغربي؛ وبعد دراسة وصفية تحليلية توصلنا لعديد من النّتائج، من بينها أنّ اللجوء إلى اللسانيات بصفتها نموذج علمي لدراسة اللغة، عاملٌ يكسب النّقد مُقومات التّجدد والحداثة، موسعة مجال المقاربات التّحليلية للنُّصوص؛ لكن سُلطة النّموذج النّقدي الغربي على المدونة النّقدية العربية، خلق مشاكل عِدة على مُستوى الفهم والتّطبيق.

الكلمات المفتاح : نص، لسانيات، منهج، نقد أدبي، مقاربة نصية.

Abstract :

This article sheds light on the methodological transformation that literary criticism has known in its approaches to texts, after the appearance of linguistics and the critical approaches that resulted from it, and how this Western model became the applicable global template; The Arab Critical Blog is witnessing a great openness to the application of Western critical approaches to the Arab creative product which is very different in its references from its Western counterpart. After an analytical descriptive study, we reached many conclusions, including that

* حسني مصطفى . البريد : mustafa.hosni@univ-tiaret.dz

resorting to linguistics as a scientific model for the study of language, is a factor that gains criticism the elements of renewal and modernity, expanding the field of analytical approaches to texts. But the authority of the western critical model over the arab criticism blog created several problems at the level of understanding and applications.

Keywords: Text, Linguistics, Method, Literary criticism, Textual approach.

مقدمة :

بعد تعدد المداخل التي مكنت الدّارس من الولوج إلى عالم النّص الأدبي عبر مَنافذ مُتعددة، والتي نجدها تتباين مرات عدة في نظرتها إلى النّص الأدبي تحليلاً وتقديراً، وتتداخل وتتشاكل في ضروب متعددة. إلا أن هذه المناهج والآليات لم تتخاذل في رفع شعار سلطة النّص واستقلاليته. وأمام مجموعة من العلاقات منها المبدع والنّص، النّص والمتلقي، النّقد والنّص الأدبي، النّص وعلم اللغة، علم اللغة والنّقد. ظهرت جلية تلك العلاقة بين النّقد الأدبي الضّارب بجذوره في التّراث والعلم الحديث لدراسة اللغة (اللسانيات). فبين من يدّعي حميمية العلاقة وشدة تواصلها لما وجده النّقد الأدبي من سند نظري ومنهجي بوصفه ضرورة ملحة في كل علم. ومن يدعي بأنها قيدته مسيطرة عليه حيث لم يستطع إيجاد وخلق آليات له تعطيه نوعا من الاستقلالية عن آليات مستنبطة من علوم أخرى.

ومن هنا نقف أمام مجموعة من التّساؤلات تُطرح منها :

- إذا اتفقنا أن النّص الأدبي هو مادة العملية النّقدية ومحورها، فهل بقي النّص الأدبي كمصطلح تتجاذبه أطراف النّقد ثابتا أم عرف دلالات أخرى بعد ظهور علوم اللغة؟
- إذا سلّمنا بفرضية أن اللسانيات أعطت نَفَساً جديداً للنّقد ومنحته نوعا من الحراك بعد جُمود، ففيما تتمثل الإفادات التي منحتها اللسانيات للنّقد الأدبي؟ وفيما تمثل عجزه أمام النّص الأدبي؟
- هل حقيقة كانت اللسانيات الخلاص والدّفعة القوية نحو التّطور للنّقد الأدبي أم مجرد خدعة تسير به نحو مزيد من القيود؟

نسعى جاهدين في نهاية هذا البحث استخلاص مجموعة من النّتائج كإجابة عن التّساؤلات السّابقة وتشكيل صورة واضحة عن أثر اللسانيات على الممارسة النّقدية؛ متبعين المنهج الوصفي التّحليلي في إخراج وتقديم هذا البحث لكم، ليكون إضافة علمية للمشتغلين على الأدب ونقده.

أولا : النّص، المصطلح والمفهوم

عرف النّص ومفهومه وقضاياه اهتماما كبيرا ودارت دراسات كثيرة حوله، لكل من الغربيين والعرب نصيب فيها، "فالنّص الأدبي مرمى كل الجهود التّنظيرية والتّطبيقية، الفكرية والفلسفية، ومع ذلك يظل متمنعاً وعصياً على التّحديد ولعل السّبب في ذلك كونه غاية تتنازعها مذاهب فكرية ومناهج نقدية متعددة ومتباينة في منطلقاتها وفي غاياتها، ما جعل مفهوم النّص متعدداً ومرناً "[1] وبالرغم من أنّ المدونة العربية القديمة لم تبلور مفهوما محدداً وشاملاً للنّص، لأنه و" منذ القدم اهتم النُحاة العرب بالقواعد نحواً وصرفاً، مما أدى إلى تركيز الدّراسات في مستوى الكلمة والجملة، فانتمت الجملة كلية إلى النّحو وتحددت بالقواعد، رغم تعدد العلاقات بين جملة وأخرى، لذلك ظل نحو الجملة يحتل مكانة رفيعة في الدّراسات اللغوية. إذ لم تكن النّصوص عند الأقدمين تدرس لذاتها بوصفها عِلما مُستقلا. لكننا نجد جذور النّص ممتدة في البلاغة العربية وفي أعمال علماء تفسير القرآن الذين نهجوا فكرة النّص قبل أكثر من ألف سنة من ظهور اللسانيات الحديثة"[2] فتركيز القدماء من العرب بشكل مسرف على نحو وصرف الكلمة، صرفهم عن الالتفات للبُنى الأكبر المتجاوزة للجملة التي عرفت " بكونها أقل قدر من الكلام يفيد السّامع معنى مستقلا بالفهم سواء أتركّب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر"[3] لكن من جانب آخر هنالك من المفسرين من أولوا النّص بالدّراسة والاهتمام، "وتتجلى تلك العناية في تعامل المفسرين الأوائل مع القرآن الكريم بوصفه نصاً متكاملاً متماسكاً ومنسجماً "[4]، فكما سبق وأن أفدنا بأنّ محاولة رصد مفهوم للنّص في التّراث اللساني العربي تُعدّ صعبة، نظراً لاتساع هذا التّراث، وعملية البحث فيه تحتاج إلى جهدٍ كبير، وكذلك أنّ الخطوط العريضة لمقالنا هذا تضعنا في محاولة لتلمس ومتابعة لتأثير اللسانيات الحديثة على تحليل النّصوص، لذلك ما كان علينا إلا الانطلاق من بعض الأفكار التي تنم عن وعي كبير يحيلنا في كثير من المرات إلى ما يدور في الفكر اللساني الحديث وتتقاطع مع نظيرتها في المنجز الغربي. فبعودتنا إلى المعاجم العربية لتتبع معاني مادة "نصص" في مختلف اشتقاقاتها تحلينا إلى معنى الرّفع والظهور والتّحريك والضّم... فالمعاجم العربية تعج بمعاني هذا المصطلح والتي يقترب بعضها إلى المعنى الحديث للنّص كما

يتداوله النّقد المعاصر، فإذا " كانت كلمة النّص في اللغات الأوروبية تعني نسيجا من العلاقات اللغوية المركبة التي تتجاوز حدود الجملة بالمعنى النّحوي للإفادة، الأمر الذي يؤكده أصل اشتقاقها من اللغة اللاتينية، فلم يكن الأمر كذلك في اللغة العربية. ومن استقراء الدّلالات المتعددة الواردة في لسان العرب لابن منضور يمكن القول إنّ الدّلالة المركزية الأساسية للدّال ((نص)) هي الظهور والانكشاف. ولا تزال هذه الدلالة بارزة في الاستخدام اللغوي المعاصر"[5]، كما تشير معاني النّص في الموروث العربي إلى التّراكم " نص المتاع نصاً : جعل بعضه على بعض."[6]

وتحيل معاني الضّم والتّراكم إلى أنّ النّص بنية متراصة، وإذا تتبعنا الأمر عينه في التّراث الغربي فالنّص في المعجم الفرنسي (texte) والملاحظ على المعنى اللغوي لمادة (texte) أنها تدل دلالة صريحة على التّرابط والتّلاحم فلقد حاول خليل موسى الجمع بين الدّلالة المعجمية لكلمة نص في العربية والانجليزية والفرنسية ليصل أنّ "معاني نص في القديم غيرها في الحديث وعند العرب غيرها عند سواهم، وهذا أمر طبيعي تقتضيه التّطورات والتّغيرات الزمنية والمكانية التي تطرأ على معاني الألفاظ وسواها، ولكن هذه المعاني وبخاصة الثّوابت منها تتقاطع وتتلاقى"[7]، فالنّص كظاهرة أدبية شغلت الباحثين ردحاً من الزّمن؛ لكن المفارقة بين الفكرين العربي ونظيره الغربي تمثلت في الاتجاه من الوحدات الأصغر إلى الأكبر بوتيرة تصاعدية، أو بالأحرى تلك القطيعة مع تراث نظريات الأدب كالمحاكاة والعلوم الإنسانية، وكأنه هروب من المغلق نحو المنفتح؛ فقد "استمر نحو الجملة حتى مطلع القرن العشرين؛ حين نشأت اللسانيات في الغرب على أنقاض فقه اللغة. فقامت بديلا منه، تقرره بالكسب ثم تنقضه حين تتجاوزه بقفزة معرفية في المنهج العلمي."[8] فتجاوز الجملة ولّد ما يعرف باللسانيات النّصية أو علم النّص أو لسانيات الخطاب أو نحو النّص وغيرها. وهذا حتما غير من مدلولات النّص ومفهومه، فبين من ينظر للنّص على أنه هو الجملة الكبرى ومن ينظر للنّص على أنّه مجموعة من الوحدات تربط بينها علائق، اتسعت دائرة المفهوم وتجاذبتها أطراف النّظريات المستحدثة عن لسانيات سوسير، ليتحدد مفهوم النّص من زاوية النّظرية التي تحدد أبعاده؛ وهذه النّظريات بدورها تتجاذبها خلفيات فكرية فلسفية مختلفة، فهذه الأخيرة المطورة عن لسانيات سوسير نقلت مفهوم النّص من الإنتاج إلى إعادة الإنتاج كنظريات القراءة والتأويل التي تدرج القارئ كطرف فاعل. "فنظرة دي سوسير للغة ستنجر عنها تطورات لاحقة تلقي بظلالها على المدارس اللسانية اللاحقة، كالمدرسة الوظيفية، والتّوزيعية والتّحويلية، كما أثرت على صياغة مفهوم النّص الأدبي والمقاربة النّقدية الأدبية على حدٍ سواء."[9]

ونستنتج مما سبق أنّ اللسانيات الحديثة أثّرت على اتساع دائرة مفهوم النّص وتعدد ودلالاته.

ثانيا : النّص وثورة المنهج النّقدي

بعودتنا إلى النّص باعتباره محور العملية النّقدية نجد أنفسنا أمام علاقةٍ وجسرٍ صنعته اللسانيات الحديثة لتربط بينها والنّقد الأدبي. فإذا كان النّقد التّقليدي هو فن الحكم على التّجارب الأدبية، فان العقل الحديث عالج مشكلة العلاقة بين إنتاج الأدب وكيفية دراسته فاتجاهات مُتعددة، و"واضح أنّ هذه العلاقة بين الأدب ودراسته تثير بعض المشاكل الصّعبة ... فهنالك من أصحاب النّظريات من ينفي ببساطة أنّ الدّراسة الأدبية معرفة... هم يزعمون أنّ الأدب غير قابل للدّراسة بالمرة، نحن لا نملك إلا قراءته والاستمتاع به وتقديره؛ وفيما عدا ذلك لا نستطيع إلا جمع شتات المعلومات عنه. مثل هذا التّشكيك هو في الواقع أكثر انتشارا مما يتصور المرء. إذ يظهر عمليا في تأكيد الحقائق البيئية عن العمل الأدبي... أما التّقدير والتّذوق والانفعال فقد عدت من الشؤون الفردية الخاصة التي يتهرب الفرد عن طريق ممارستها من صرامة الدّراسة القويمة."[10] فتشكلت عناصر المشكلة في كيفية إيجاد طرق عقلية سليمة لدراسة الظّاهرة الإبداعية والنّاتج الأدبي بوجه خاص، " إحدى الإجابات كانت أنه يمكن الوصول إلى ذلك بالوسائل التي تتبع في دراسة العلوم الطبيعية، وما علينا إلا أن نطبق هذه الوسائل في مجال الأدب."[11] وهو تعبير واضح عن النّزوع نحو إيجاد منهج لممارسة نقدية سليمة تُؤتي ثمارها، ويذهب أغلب الباحثين إلى أنّ " قضية المنهج هي القضية الأولى في كل حقول المعرفة، إذ ترتبط نتائج كل علم بالمنهجية المتبعة فيه، ولذلك فإننا لا نكاد نجد في هذا العصر علماً دون منهج خاص للتعامل معه. من هنا احتل المنّهج أهمية كبيرة، وغدا هاجساً مؤرقاً."[12] وقد ثبت أنه لا يكمن البحث في أية ظاهرة وتحليلها تحليلاً علمياً دون الأخذ بمنهج يناسب الظّاهرة المدروسة؛ فالمنهج يساعد الباحث في الوصول إلى مجموعة من النّتائج بأقل جهد ووقت وبطريقة شبه مضمونة. حيث لا يمكننا نفي أهميته "بوصفه نوعا من الخبرة، أو بوصفه منظومة متكاملة. فالنّقد المنهجي بما يقوم عليه من دقة ذهنية ضمان للحد من الطرطشات العاطفية والنّزوات التّأثرية فهو كقطب المغناطيس الذي يحوّل المتنافر والمتباعد من برادة الحديد إلى المتناسق في إطار خاص"[13]، حتى لا تطغى الانطباعية غير المبررة على النّقد الأدبي، وفي البحث عن طريقة علمية ممنهجة لدراسة الأدب ظهرت عدة محاولات تحولت فيما بعد إلى مناهج التفّ حولها الكثير لما أمّنته من طرق عقلية تمكن من تتبع الظاهرة الأدبية والإحاطة بها؛ " أحدها محاولة التّمثل بالمثل العلمية التي تقوم على الموضوعية والنّزاهة عن الميل الشّخصي، وتستهدف هذه المحاولة بوجه عام جمع الحقائق المحضة عن

العمل الفني. وثمة محاولة أخرى لانتهاج أساليب العلوم الطبيعية وذلك عن طريق دراسة أصول العمل الفني والأعمال السّابقة التي أدت إليه، هذا المنهج الوراثي يصل بنا إلى تفسير الظواهر الأدبية بتحديد العوامل التي تؤثر في الظّروف الاقتصادية والاجتماعية والسّياسية، وهنالك محاولة الاستفادة من النّظريات البيولوجية في تتبع تطور الأدب."[14] لكن إلقاء الظاهرة الأدبية بين أحضان علوم أخرى كعلم التّاريخ وعلم النّفس والانثروبولوجيا تولد عنه مشكلة أخرى، وهي هيمنة أساليب ومناهج تحليل الظّاهرة الأدبية من منظور خارجي، وإحكام سيطرتها على النّصوص الأدبية لفترة من الزّمن؛ حيث صارت محاولة دراسة النّص الأدبي تغييبا له، وإذابته في أبعاد لا يحتملها. فحتى إن شبهنا النّص بصندوق كنز أمام هذه الطّرائق، فهي دائما تدفع إلى معرفة من النّجار؟ وعن طريق من؟ ورث حرفته ومن أي غابة اقتطع الأشجار ليصنع هذا الصندوق؟ غافلة عما يوجد في الصّندوق من كنوز.

أمام هذا التّمادي في إسقاط عوامل خارجة على النّص، تعالت الأصوات لإيجاد بدائل تعيد الأهمية والاعتبار لمكانة النّص الأدبي، أمام هذا الطّلب الملح كان لظهور اللسانيات الحديثة بوصفها الدّراسة العلمية للغة الأثر الأكبر في صُنع التّحول وإيجاد البدائل انطلاقا من فكرة أنّ اللسانيات هي دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها؛ باعتبار اللغة النّقطة الأساسية التي ينطلق منها الدّارس لكشف ماهية النّص." ومن هنا أصبح اللجوء إلى اللسانيات بصفتها نموذج لدراسة الكلام عاملا من العوامل التي تكسب النّقد مقومات التّجدد والحداثة."[15]

وتعد اللسانيات " علما صلبا وهي في ذلك أقرب إلى الأدب من النّماذج العلمية التي أرادت الدّراسات العلمية اكتساب دقتها وصرامتها... وبما أنّ اللسانيات السوسورية تثير طريقة جديدة في طرح المسألة في العلوم التي تبحث في الدّليل signe، فيجب إذا أن نبدأ من هنا لفهم مناهج ورهانات الدّراسة النّصية. "[16] وهي تلك الثّورة التي أحدثتها الدّراسة الآنية أو الدّاخلية والتي تبلور عنها ما بعد بما يعرف "بالبنية" التي غيرت عالم النّقد، ويمكننا القول بأنّ الخطابات النّقدية، بعد سوسير، قد انتعشت وتشكلت عن طريق النّقاش حول البنيوية وانعكاساتها الأدبية"[17] التي أرسى قواعدها في الأدب الشّكلانيون الرّوس وذلك ببحثهم عن ما يجعل من الأدب أدباً، أو ما يعرف بـ **"أدبية"** الأدب؛ حيث وجدوا سندا في تلك الثّنائيات الشّهيرة التي استحدثها دي سوسير كثنائية التّزامني والتّعاقبي؛ فالبنيوية وكخطوة أولى لها تمثلت في " التّعطيل المؤقت والمقصود لمحور البحث التّاريخي في الأدب، لتفعيل المحور الأخر المقابل له، وهو البحث في الأدب كنظام في حد ذاته."[18] فالبحث عن أدبية الأدب هو بحث عن

تلك " العناصر التي تجعل الأدب أدباً، تلك العناصر التي يمكن اعتبارها ماثلة في النّص محددة لجنسه الفني ومكيفة لطبيعة تكوينه وموجهة لدى كفاءته في أداء وظيفته الجمالية."[19]

وارتبط هذا بما صاغه جاكبسون من نظرية عن وظائف اللغة مركزين على الوظيفة الشّعرية للغة، "فالوظيفة الشّعرية هي المقابل لأدبية الأدب وهي التي يدعو إليها والعناية بها النّقاد البنيويون"[20] وبناءا على هذه التّوجهات الجديدة يتم التعامل مع النّص على أنّه " مجموعة من البنيات الوظيفية، التي يكون فيها الدّال والمدلول محكوما بسلسلة من العلاقات المتشابهة والوحيدة، من حيث مستواها الوظيفي، كما أنّ العلامات اللغوية تحلل من منطلق حضورها النّصي في ذاتها من دون إحالتها إلى أية حقيقة خارجية. فنظرية سوسير حول اعتباطية العلاقة بين الدّال والمدلول، ساعدت على فصل النّص عن محيطه، وجعلت منه كيانا مستقلا."[21] وفي هذا التّحول المنهجي أثر واضح للسانيات في تخليص النّقد الأدبي من سطوة الخلفيات الإيديولوجية " وبذلك لم يعد النّقد مجالا لبروز إيديولوجيات أو نظريات مرتبطة بجوانب سياسية أو اجتماعية أو تاريخية."[22]

ومن هنا " كان منطلق الدّراسات اللسانية في سعيها لإقامة جهاز مفهومي يختص بالدّراسة الأدبية للنّصوص، باعتبارها أفعالا كلامية خاصة منحوتة من نسق بنائي كلي هو اللغة. وفي هذا الصّدد يرى صلاح فضل أنّ مبدأ الفصل بين اللغة والكلام عند سوسير يمثل الأساس المعرفي لحقول الدّراسات النّظرية والتّجريبية في اللغة والأدب، عبر دفع التّحليل الجدلي للعلاقة القائمة بينهما في إنتاج قيم جديدة تتعلق ببلاغة الخطاب، وهذا بطبيعة الحال من خلال التّحليل الفعلي للنّصوص وأشكال الخطاب المختلفة."[23] وإذا كانت إسهامات الدّرس اللساني، والتي تم توسيعها كمفاهيم لتشمل الخطاب الأدبي، وهذا عن طريق ثنائيات الدّال والمدلول واللغة والكلام، والسانكروني والدياكروني، وما قام به جاكبسون من إفادات للدّرس النّقدي عبر أطروحاته المتعلقة بالأدبية، فإن بروب واحد ممن قدموا مبادئ تحليلية للنّصوص تكملة لأطروحات سوسير اللسانية، من خلال ما صاغه من أبعاد منهجية لدراسة الحكاية." لقد كانت المساهمة الأساسية لبروب هي وضعه لإطار منهجي عام وشامل لدراسة الحكاية، بناء على جملة من المفاهيم الأساسية التي تجعل من البحث في النّص السرّدي قائما على مبدأ الوظيفة fonction ومبدأ التّحول transformation ويعد كتاب مورفولوجيا الحكاية Morphologie du conte الصّادر عام 1928، من بين النّصوص المؤسسة للدراسات البنيوية للسّرد."[24] وهو شكل من التّحاشي للمؤثرات الخارجية، " فالوظائف عبارة عن وحدات تركيبية ثابتة، مهما تعددت وتنوعت الحكايات، وتشكل عبر

تتاليها وتواليها بنية الحكاية."[25] فالتّوجه المسجل نحو البنيوية في الدّراسة الأدبية يؤكد " أنّ هذه الحركة تجاوزت الأطر التّصنيفية الضّيقة للمعتقدات الدوغمائية للفلسفات المختلفة، وطرحت نموذجا متكاملا ومتعددا، يرتقي بالطرح البنيوي لأن يقارب النّظرية العلمية."[26]

الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فالتّعامل مع البُنى الدّاخلية للنّص ككيان مستقل، ولّد عدة آليات تفتح منافذ للدّخول إلى عالم النّص وسبر أغواره، كالأسلوبية؛ إذ يعد " مصطلح الأسلوبية من أهم المصطلحات التي راجت بها السّاحة النّقدية والتي راح العديد من النّقاد يعتمدون عليها كثيرا في تحليل النّص الأدبي. من خلال ما سبق يتضح لنا أنّ العلاقة بين النّقد الأدبي واللسانيات لها مظهران: مظهر يرجع إلى السّلف ويتمسك بنهجهم في دراسة الأدب وهم الذين يقولون بالأصالة النّقدية، ومظهر أخر يقرّ بالتّنظير وبعلاقة النّقد باللسانيات خاصة عند الذين انحازوا إلى النّص وابتعدوا به عن مجال التّاريخ والايديولوجيا."[27] ومن الدّلائل على أنّ الأسلوبية لا تخرج عن دائرة علوم اللغة، لأنه فيه من يقر بالعكس هو قول المسدي:" اللغة هي القاطع المشترك لدائرتين مُتداخلتين، فهي الألسنية موضوع علم اللغة ذاته وهي للأدب المادة الخام، شأنها شأن الحجرة للنّحات والألوان للرّسام والأصوات لواضع الألحان."[28] فالرّكيزة الأساسية هنا هي اللغة، التي تمكن النّص من التّشكل في صورته النّهائية "فالأسلوبية تنهل من معين اللغة الذي لا ينضب بما يحقق الاكتفاء الذاتي لها، ولما كانت الأسلوبية تنشد الموضوعية العلمية والصّرامة المنهجية راحت تأخذ من اللسانيات آليات تحليلها والاقتداء بمبادئها، كون الألسنية لها من الانضباط المنهجي ما أهلها أن تكون علما مضاهيا للعلوم الصّحيحة."[29]

ثالثا : الأزمة المنهجية للنّقد الأدبي العربي

بعد هذه التّقاطعات والتّطورات الحاصلة والنّظريات المستحدثة، علا في السّاحة النّقدية مصطلح النّقد اللساني، و" هو ذلك النّقد الذي ينطلق إلى موضوعه المستهدف نقدا بمرتكزات وأسس لسانية عامة أو جزئية خاصة. "[30] ورغم البريق الذي أعاده النّقد اللساني للنّص، وما مده من استقلالية، والمناهج التي ولّدها، والتي تعد مداخل متعددة لفهم واكتشاف النّص الواحد، إلا أنّه يوجد الكثير ممن قابل هذا النّوع من النّقد بالرفض والطّعن، وإذا ما اتجهنا بهذا المنجز الغربي لنرصد صداه في السّاحة الأدبية والنّقدية العربية فإننا نصطدم بآراء مُتضاربة بين مؤيد ومعارض. ليكشف لنا المشهد النّقدي العربي التّأثر الواضح بالمنجز الغربي من مناهج نقدية، وما انجرّ عنه، أنّ النّقد الأدبي الحديث والمعاصر في الوطن العربي منقطع وبشكل كبير عن المدونة النّقدية العربية القديمة، ولم يكن وليداً لمحاولات تطويرية للنّقد القديم، بل جاء

كنتيجة أسفرت عنها المثاقفة التي أدت في النّهاية إلى هيمنة الثّقافة الوافدة؛ فالقبول بدافع الانفتاح والمواكبة لا يمنح مجموعة المناهج المستوردة صفة الانسجام أو شرط التّكيف الكامل في أطر ثقافية غير أطرها الأصلية. فبين منغلق على التّراث رافض لأي تجديد ومنفتح على الغرب واقع في التّبعية لاقى النّقد العربي تيهاً منهجياً.

بدأت معالم الأزمة المنهجية تبدو جلية على المشهد النّقدي العربي، فمقارنة بما عرفه الغرب من تحوّلات على مستوى المناهج النّقدية، وظهور مناهج جديدة كالبُنيوية، والسّيميائيات، والأسلوبيات... في أواخر السّتينات من القرن الماضي. نجد العرب لم يتعرفوا إليها إلا في أواخر السّبعينات أو كانوا غارقين في تقديم النّقد بشكله المتّصل بالظروف السّياسية والمجتمع، وهي كذلك مقاربات غربية تم تجاوزها إلى النّسقية من طرفهم. ويذهب سيد بحراوي إلى القول: " إنّ النّقد العربي يعيش حالة أزمة، ومن مظاهر هذه الأزمة غياب تام لدور النّقد في الحياة الثّقافية، غياب المنهج الواضح؛ الشّيء الذي يترتب عنه عدم تبلور مدارس نقدية عربية تقدم رؤية متكاملة للعمل الأدبي."[31] ويجمع جل الدّارسين أنّ " ما يصلح كتطبيق على النّص الغربي قد لا يصلح بالضرورة كتطبيق على النّص العربي."[32] كما يعد "الاشتغال على النّص العربي بأدوات خلقت في الأصل لنص غربي يختلف عنه في النّشأة والبيئة يعد إجحافا و إهمالا في حقه، فمن الخطأ عدم مراعاة التّربة الأصل والخلفية المنتجة لأي منهج، فالمتتبع للممارسات النّقدية في خطاب الحداثة النّقدية العربية يجد أن المناهج المستخدمة غربية الأصل مما يضع مستخدميها من النُّقاد أمام إشكالية التّأصيل المنهجي."[33] وهذا ما يجمع عليه غالب المقرّين بوجود أزمة منهجية، فسعيد يقطين واحد ممن يرون أنّه" منذ بداية احتكاكنا بالغرب على الصّعيد الأدبي ونحن لا نأخذ من النّظريات والاتجاهات المختلفة سوى نتائجها، وما فكرنا قط ... في استلهام الرّوح العلمية التي يشتغل بها أصحاب النّظريات؛ إنّ هذا السّبيل يمكن أن يقودنا في حالة القيام به إلى التّفكير في الأخذ بالأسباب العلمية وهي إنسانية، إلى تحصيل نتائج مختلفة، بناءا على ما يقدمه النّص الغربي من خصوصيات هي وليدة المجتمع الغربي."[34]

جُل الأقوال السّابقة تجمع بوجود خلل على مستوى النّظام النّقدي العربي، وأن الأزمة صارت ملازمة له تنهشه وتطيح بمقوماته؛ ومن علاماتها كذلك، الخلط المصطلحي وفوضى التّوظيف.

بالرغم من انجازات النّقد البنيوي وما كتب فيه والمجالات التي فتحها وما تعدد عنه من مناهج، واللمعان الذي صبغه لم يشفع له عند بعض الثّائرين عليه، حتى ممن انتهجوا هذا النّهج. هذا ما يظعنا

أمام سؤال يطرح نفسه كل مرة : هل النّقد اللساني البنيوي حل لإشكالية المنهج في مقاربة النّصوص، أم مخاتلة تخفي خلف بريقها الكثير من القيود؟

وجهت الكثير من الانتقادات لهذا النّوع من النّقد، وذلك بعد المغالاة التي جلبها في بعض جوانب نظرياته، وكان مبدأ المنتقدين لهذا النّهج وتصورهم أنّ "الإنتاجية في التّصور البنيوي عبارة عن إنتاجية منسلخة، وفعل معزول عن المصدر الذي أنتجه، والرّحم الذي أخرجه، فيما يعرف عند البنيويين بموت المؤلف، الذي نادى كثيرون بتحييده بمجرد أن ينجز النّص الذي سرعان ما يتنكر له، ومن أبرز من عبّر عن هذه الفعالية رائد النّقد الألسني بارت متأسياً في ذلك بما أثاره ملارميه، بل ومنظرا له."[35]

يمتعض الكثير من أصحاب هذا النّهج، ويعدون الأمر مخاطرة وعبثا وخلخلة لعناصر العملية التّواصلية، فهذا الإلغاء لمنتج النّص أو المرسل، يفتح مجالا واسعا لكثرة التّأويلات المنقطعة عن مصدر ومرجع أصيل للنّص، والتي تؤدي في كثير من الأحيان إلى اختلاف أفق الدّلالة، " لاشك أن مقاربة النّص الأدبي من هذا المفهوم يحمل من المزالق ما قد يحول دون استنباط الأوجه الحقيقة لمكونات النّص، باعتبار أنه في حقيقة الأمر عملية تواصلية تتكئ على اللغة، ولكن تتجاوزها إلى أطرافها التّداولية، ومع هذا التّوجه ظهر مصطلح جديد للنّص، هو مصطلح الخطاب لاسيما في نقد ما بعد البنيوية."[36] لهذا نجد ميشال فوكو ينتقد بارت فيما ذهب إليه ليقول:"أننا نخادع أنفسنا ونكتفي بالإعلان فقط. أي إعلان موت الكاتب. بينما المؤلف يتمتع بصلاحيات وامتيازات الأمر والنهي."[37]

وفيه من عاب على النّقد البنيوي، أمر تقنين الإبداع الأدبي وإحصائه بجداول ومنحنيات رياضية، وتحويله إلى معادلات، بحجة أنّ الظاهرة الأدبية ظاهرة متميزة لا تشبه باقي العلوم غير قابلة للوصف الكمّي؛ وكأنه السّحر ينقلب على السّاحر؛ فأهم قضية طرحتها البنيوية وهي فكرة البُنى المكونة للنّصوص، أعيب عليها بقولهم:" أنها تنظر إلى النّص وجمله على أنها بُنى ثابتة، غير قادرة على الحركة والمناورة، في حين أنها في الحقيقة عكس ذلك."[38] تقول إيديث كروزويل: " أنه قد حدث غُموض كبير وإبهام ومراوغة، كما لم تكن وحدها في التّوقف عند غموض البنيوية الواضح، فقد شاركها ميشيل ريفاتير الذي هاجم البنيوية بسبب غموضها وخصّ بالذكر كل من جاكبسون وشتراوس، فالدّراسة التي قام بها الاثنان توصلت إلى أن قوانين البنيوية قوانين يستعصي فهمها على القُرّاء العاديين منهم والمثقفين."[39] ومن المصرحين بخطورة المشروع البنيوي عبد العزيز حمودة في كتابه المرايا المحدبة في تلك العبارة الصريحة عن وظائف بروب، حين قال: "أن الربط بينها لا يفيد ولا يحقق إنارة للمعنى ولا تقريبه من القارئ."[40]

وكذلك هناك من يُرجع ظهور نظريات ومناهج ما بعد البنيوية إلى " القطيعة التّامة التي أحدثتها البنيوية بين العلامة اللغوية وغيرها من العلامات غير اللغوية، وهو الذي كان وراء ظهور التّداولية التي اضطلعت بإعادة اللحمة بين البنية النّحوية الكامنة في اللغة وبين استعاملها في العملية التّواصلية كواقع ملموس."[41] فهل يحلينا هذا إلى أنّ المنهج الذي صنع ضجة كبيرة يؤول للزوال ويأفل نجمه؟ هل ما يسمى بما بعد البنيوية من نظريات تلقي وقراءة وتأويل وتفكيك هي امتداد للبنيوية أم تجاوز لها؟

إنّ الإعلان عن قيام حركة جديدة سُميت بما بعد البنيوية التي حُسب عليها عدم وصولها إلى مكامن النّص، ومنه فشلها في فهم المعنى، كفيل بجلب مفاهيم نقدية جديدة تخدم النّقد أمام الآلة النّصية المعقدة، في هذا الصّدد يقول النّاقد ديفيد بشبندر أنّ التّفكيك " مقاربة فلسفية للنّصوص أكثر مما هي أدبية، إنّه نظرية بعد البنيوية، ولا تدل(بعد) على أنّ التفكيك يحل محل البنيوية باعتباره نظرية أحدث زمنيا، ولكنها تدل بالأحرى على أنه يعتمد على البنيوية كنظام تحليل سابق."[42]

أمام ما ينتجه العقل الغربي كل مرة من مقاربات للنّص الأدبي ويتجاوزها كذلك إلى مناهج أخرى، فإلى متى يبقى العقل العربي حبيس هذه التّحولات الغربية؟

وبُغية خلق نموذج ثقافي يتعرض لهذه المناهج إما بالتّأصيل أو الوصف أو النّقد والطعن أو التّطبيق المباشر، هل ذلك فقط من أجل إثارة الجدل والكتابة لأجل الكتابة؟ أو لخلق لغة حول لغة؟ أو هو حقيقة محاولات لاستخلاص عصارة هذه المناهج وصنع خلطة جديدة تمكن من خلق مناهج خاصة بالثقافة العربية؛ هذا ما يعد مشكلا عويصا يواجه النّقد العربي الذي راح يفْقِدُ خصوصياته، على يد النُّقاد الذين استسلموا أمام الفكر الغربي ومنه جانبه النّقدي خاصة، منبهرين أمام هذا الوافد الجديد على الحضارة العربية دون إقامة حدود فاصلة بين خُصوصيات وثوابت الحضارتين؛ وكأنّ النّاقد العربي أقلُّ موهبة وعلماً من نظيره الغربي. وعلى عكس النّقاد القدامى لم يحاول المتأخرون إيجاد منهجية للنّقد العربي خاصة بهم، مُنساقين خلف الفكر الغربي وما أحدثه من مناهج، غير مراعين الخلفيات الفكرية والفلسفية والظّروف الاجتماعية التي انبثقت عنها. فصار النّموذج الغربي هو المسيطر، أمام عملية اجترار تعيد إنتاج ما جاء به الأسلاف بشكل نمطي يكاد يخلو من الإبداع حتى لا نقول عليه ردئ؛ ليبدو الفكر العربي في هذه الحالة محكوما برؤى ومناهج قديمة وسجيناً لها. حتى أنَّ المصطلح بدوره وليد بيئة ما، فهو"ظاهرة اجتماعية، يشترك فيها أفراد جماعة من النّاس يجمعهم الاتفاق والانسجام من أجل جعل اللغة أكثر مناسبة وصلاحية لتحقيق مقاصدهم."[43] ثم إنّ اللغة النّقدية كلغة واصفة لها مُصطلحاتها النّقدية التي تعبر

بها عن ذاتها والتي تصنع الاختلاف بينها وبين النّص الإبداعي؛ وفي هذا الشّأن يقول عبد السلام المسدي: "المصطلحات هي مجموعة الألفاظ التي يصطلح بها أهل علم من العلوم على متصوراتهم الذِّهنية الخاصة بالحقل المعرفي الذي يشتغلون فيه وينهضون بأعبائه، ويأتمنهم النّاس عليه، ولا يحق لأي أحد أن يتداولها بمجرد إضمار النِّية بأنها مُصطلحات في ذلك الفن، إلا إذا طابق بين ما ينشده من دلالة لها وما حدده أهل ذلك الاختصاص لها من مقاصد تطابقا تاما."[44]

إذن هناك فوضى في المصطلح النّقدي عند العرب أثناء استخدامه، حيث كثيرا ما نجدهم في كتاباتهم النّقدية يخرجون المصطلح من مرجعيته المعرفية ليضعوه في مجال آخر، ويلاحظ عليهم ذلك التّعدد في التّرجمات للمصطلح الواحد وعدم الاتفاق على اصطلاح معين أو ثبات في الاستخدام.

خاتمة

إنّ الحاجة إلى منهج يحدد أطر الدّراسة وينظمها، دفعت الدّارسين العرب والمشتغلين على الأدب العربي ونقده إلى تطبيق النّموذج الغربي، فمحاولة غرس هذه النّماذج المختلفة في مرجعياتها و خلفياتها الفلسفية في تربة غير تربتها الأصل، ودونما وعي بما سيحدثه هذا المنجز على المدونة النّقدية العربية، صنع نقدا عربيا مُعاصرا منقطعا مع محاولات القدامى، لا يراعي خصوصيات المنتج الإبداعي العربي، ما خلق أزمات على مستوى الفهم والتّطبيق، جاعلا النّقد تنظيرات أقرب إلى المعادلات الرياضية. فقضية المنهج في النّقد العربي قضية منظومة مجتمعية كاملة تنساق وراء كل ما هو غربي، فالأدب ونقده يولدان بالجينات الوراثية للأمة المنتجة له؛ لا بالحلل التي يكتسيها خارجا.

وقد خلصنا من خلال هذا البحث إلى بعض النّتائج ونذكر منها :

- كاستنتاج مما سبق أنّ اللسانيات الحديثة أثّرت على اتساع دائرة مفهوم النّص وتعدد دلالاته.
- تعدد النّظريات اللسانية أدى إلى تعدد المقاربات التّحليلية للنّصوص.
- محاولة غرس المنتوج الفكري النّقدي الغربي في تربة عربية، خلق مشاكل عدة على مستوى الفهم والتّطبيق.

هوامش :

1- دهيمي حكيم، تشكل مفهوم النّص في منظور النّقد الغربي والعربي، متابعة لحقيقة النّص ضمن أهم الطّروحات النّقدية المعاصرة، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، العدد 21، ديسمبر 2014، ص 150.

2 - عياد عبد الله، مفهوم النّص في التّراث العربي: خطوة في تكامل المنهج النّقلي والعقلي، مجلة الثّقافة الإسلامية والإنسانية، جامعة سينز إسلام ماليزيا، العدد 10، 2017، ص .113

3- المرجع نفسه، ص 114.

4- المرجع نفسه، ص 115.

5- ناصر حامد أبو زيد، النّص، السُّلطة، الحقيقة، الفكر الدّيني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1995 ، ص 150.

6- مصطفى الكيلاني، في الميتا-لغوي والنّص والقراءة، دار أمية للنشر، (د،ط)، تونس، 1994، ص 23.

7- خليل موسى، النّص لغة واصطلاحا، جريدة الأسبوع الأدبي، دمشق، العدد 823، 2000، ص 20.

8- عياد عبد الله، مفهوم النّص في التراث العربي: خطوة في تكامل المنهج النقلي والعقلي، ص 115.

9- عمر عيلان، النّقد الجديد والنّص الروائي العربي، دراسة مقارنة للنّقد الجديد في فرنسا، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الأدب الحديث، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2006، ص 18.

10- ينظر : رنيه وليك، نظرية الأدب، تر: عادل سلامة، دار المريخ، (د،ط)، الرياض، المملكة العربية السّعودية، 1992، ص 24.

11- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

12- عبد الحميد هيمة، النّص الشّعري بين النّقد السّياقي والنّقد النّسقي قراءة في إشكالية المنهج في النّقد العربي المعاصر، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد 02، ديسمبر 2011، ص 83.

13- كاملة مولاي، المنهج النّقدي عند محمد مفتاح بين التّوفيق والتّلفيق، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، الجزائر، عدد خاص، 22، 23، فيفري 2012، ص 136.

14- ينظر : رنيه وليك، نظرية الأدب، ص 24-25.

15- غنية بوضياف، حضور اللسانيات في التّنظير الأسلوبي العربي المعاصر، دراسة في نقد النّقد، اللسانيات : مائة عام من الممارسة، ندوة مخبر أبحاث اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، نوفمبر 2013، ص 01.

16- رظوان ظاظا، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، عالم المعرفة، (د،ط)، الكويت، 1997، ص 168-169.

17- المرجع نفسه، ص 170.

18- صلاح فضل، مناهج النّقد المعاصر، ميريت للنّشر، ط1، القاهرة، مصر، 2002، ص 91.

19- المرجع نفسه، ص 91- 92.

20- المرجع نفسه، ص 92.

21- عمر عيلان، النّقد الجديد والنّص الروائي العربي، ص 25.

22- صلاح فضل، مناهج النّقد المعاصر، ص 93.

23- عمر عيلان، النقد الجديد والنّص الروائي العربي، ص 20-21.

24- المرجع نفسه، ص 33.

25- المرجع نفسه، ص 34.

26- المرجع نفسه، ص 37.

27- غنية بوضياف، حضور اللسانيات في التنظير الأسلوبي العربي المعاصر، ص 01.

28- المرجع نفسه، ص 03.

29- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

30- مبروك بركات، نحو نقد لساني عربي مؤسس، جهود مصطفى غلفان نموذجا، مجلة الذاكرة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد 02، 2013، ص 01

31- صلاح الدين باوية، النّقد الأدبي العربي المعاصر-مزالق وحلول-، مجلة الذّاكرة، مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد8، جانفي 2017، ص 250.

32- فاطمة سعدون، إشكالية التّطبيق والوعي بالأصول، مجلة جسور المعرفة، مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر، العدد7، سبتمبر2016، ص 71.

33- ينظر: عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النّقدي العربي المعاصر-مقاربة حوارية في الأصول المعرفية-، دط، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 2005، ص 135.

34 - سعيد يقطين، الأدب والمؤسسة والسلطة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 69.

35- عمر بوقمرة، التّحول اللساني من البنيوية إلى التداولية، مجلة جسور المعرفة، جامعة الشلف، الجزائر، العدد 03، 2015، ص 45.

36- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

37- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

38- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

39- ينظر: عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التّفكيك، (د،ط)، عالم المعرفة، 1998، الكويت، ص 244.

40- ينظر: المرجع نفسه، ص 246.

41- عمر بوقمرة، التحول اللساني من البنيوية الى التداولية، ص 46.

42- ينظر: ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصرة وقراءة الشعر، تر: عبد الكريم مقصود، (د،ط)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1996، ص 75.

43- لحسن دحو، كاريزما المصطلح النّقدي العربي، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد7، 2011، ص 209.

44- عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النّقد، دار الكتاب الجديد المتّحد، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص 146.